

إلى أي مدى سيقدر الناس على البقاء داخل قمقم العزل

إطالة فترة الحجر تنذر بتناقضات سلوكية: الهروب من تداعيات التوقي من الفيروس بمخاطرة الإصابة به



المخاطرة بالسقوط تحت القضبان للنجاة

تذيب الوتيرة المتسارعة لانتشار فيروس كورونا الفروق بين المخاطر الشخصية والعامية. وتبتر سرعة انتشار الفيروس وحالة الهلع المصاحبة قلق علماء الاجتماع من الوصول إلى مرحلة "سيكولوجيا الأوبئة" التي يفقد خلالها الناس عقلانية التصرف، وتصبح غريزة البقاء هي المحرك، بعد فترة قصيرة من العيش في ظل ظروف العزل التي فرضها الوباء، حيث سيختنق الناس اجتماعيا وماليا وسعودون إلى الحركة مهما كانت النتيجة، وهو ما يؤكد خبير الاجتماع أحمد زايد في لقاء مع "العرب".

محمد عبدالهادي
صحافي مصري

القاهرة - كلما طالت الفترات الزمنية التي يقضيها الناس تحت ضغط العزل الذي فرضه انتشار وباء كورونا زادت المشكلات النفسية والاجتماعية، التي لا تقل خطورة عن الإصابة بالوباء ذاته. وتخشى الحكومات والخبراء من أن تكون المعركة ضد الفيروس جبهة أخرى، غير مباشرة، وهي حالة القلق التي تصاحب حالة العزل القسري وغياب الشعور بالأمان بين الناس بمرور الوقت. ويحذر باحثون في علم الاجتماع منهم خبير الاجتماع السياسي المصري أحمد زايد، من أن الضغط النفسي، خاصة إذا ما ترافق مع أزمة مادية واجتماعية، قد يولد انفجارا وتصبح غريزة البقاء هي المحرك رغم أن في الأمر مخاطرة، ضمن معادلة متناقضة: الهروب من الضيق المادي والنفسي عبر المخاطرة بالتجمع واحتمال نقل العدوى.

خطر جماعي

ويشير أحمد زايد، في حوار مع "العرب" إلى أنه من الصعب التفريق بين المخاطرة الفردية والاجتماعية في خضم وباء مثل كورونا، فالفرق إذا غامر بحياته الخاصة خلال الظروف التقليدية يضر ذاته فقط، أما حاليا تمتد مساحة الضرر إلى المخاطرين الذين سينقلون العدوى إلى الآخرين حتى يصبح المجتمع كله في خطر.

لا بد من اللجوء إلى قوة القانون في تطبيق قرارات التباعد الاجتماعي وعدم ترك الأمور للخيارات الشخصية، لكن مع نوع من الإنسانية في التنفيذ

وليفت إلى أن المخاطرة الذاتية تتزايد مفضلتها في الدول التي تسيطر على أفرادها منطلقا فكرية مرتبطة بـ"القدريّة"، فالذين يواصلون حياتهم كالمعتاد دون اعتبارات إمكانية نقل العدوى لشبكة الأقراب والأجباء يرفعون دائما شعارا انكاليا، مفاده بأن "قدرك سيصيبك مهما فعلت". الشعور بالأمان هو البضاعة الأكثر ندرة وطلبا في فترات المخاطر، فقلة المعلومات وتضاربها حول كورونا وحضانتها وطبيعة العدوى والمناعة التي

يحصل عليها الإنسان بعد الإصابة تفتح مساحات واسعة من القلق وتدفع البعض للتكالب على تخزين السلع والأدوية والبضائع، كما لو كانت النهاية على الأبواب.

وتتزايد المخاوف من تقسيم الوباء البشري لفريقين، أحدهما يعاني من الفوبيا والذعر ويصل إلى حواف الأمراض البسيكوماتية فيشعر بأمراض جسدية مؤلمة مرتبطة بحالته النفسية، وفريق آخر تقوده نظرة انحرافية يُعطي فيها المخاطرة الفردية على المجتمعية. ويتشكل السيناريو الأسوأ مع مضي الوقت داخل الحجر المنزلي وليالي حظر التجول الطويلة، واختناق المعزولين ماديا مع نفاذ البضائع التي يمتلكونها، ليصل الأمر بهم، اغنياء وفقراء، لنقطة يتحركون فيها غير عابئين بالعدوى بحثا عن غذاء أو دواء.

حالة اللاوعي في التصرف ربما نستشفيها مع بداية انتقال العدوى، مثلا قطار ينطلق من محطة القاهرة المزدحمة بالركاب، ويبدو العالقون على أبوابه وفوق قاطرته أكثر من المحتشدين بالداخل، وجميعهم يحاولون الرجوع إلى بيوتهم قبل موعد حظر التجوال الذي تم فرضه لمنع انتشار فيروس كورونا، ليتحولوا بانفسهم إلى حاضنات مثالية للوباء ذاته.

يتكرر المشهد في الهند التي يتجاوز سكانها المليار نسمة، والتي ألزمت سكانها بالبقاء في بيوتهم ثلاثة أسابيع في أكبر عملية إغلاقٍ للعالم للحد من انتشار المرض، فتجمع مئات الآلاف بمحطات القطارات في مشاهد حشر عظيمة للحاق بأخر فرصة للعودة إلى مدنهم الأصلية غير عابئين بنقل العدوى إلى أهلهم وأقربانهم في بلدانهم الأصلية.

اليوم، تجمع هؤلاء في مسعى للعودة إلى ديارهم، لكن غدا، وإذا اشتدت الأزمة وتحولت عملية العزل إلى عملية ضغط مادي ونفسي قد ينفجر هؤلاء ويمتلئ القطار من جديد في رحلة عودة إلى الحياة اليومية رغم ما يعنيه ذلك من مخاطرة.

سياسة الاحتواء

تخشى الحكومات والخبراء من "سيكولوجيا الوباء"، أكثر موجات من التناقضات القيمة السلوكية، تكسر معها الروتين اليومي المعتاد للشعوب، وقد تصعب بهم موجات من اليأس وعدم اليقين حول المستقبل، ويصبح القلق محركهم في غمار الحياة.

ويوضح زايد أن ثقة الناس في حكوماتهم ومؤسستهم وفي تعاملات شركاتهم وارباب أعمالهم معهم، من العوامل الأساسية في تحديد سلوكياتهم في خضم انتشار الأوبئة. وكلما شعر الناس بالأمان كانت القدرة أكبر على الاحتواء.

وتتزايد حمى التناقضات يوميا مع تزايد القيود على الحركة، فمثلا نظم اهالي قرية مصرية تظاهرات ترفض الحصص الحكومية الموزعة إليهم من الغذاء بحجة أنهم لا يقبلون إجسانا، أو أن يرفض البعض إغلاق المساجد مستعينا بحجج واهية. كما خرجت مسيرات التكبير لرفع البلاء، رغم حظر التجمع، على غرار ما حصل في مدينة الإسكندرية، بمصر، فيما اعتبر نائب تونسى الفايروس عقابا للحكومات على تحريمها النقاب.

ويؤكد زايد أن المجتمعات عندما تعجز معارفها عن فهم طبيعة الأسباب تهوّل إلى الخرافة والتفسيرات الدينية المربحة. ويشير إلى أن الحسم الحكومي يمثل طوق النجاة، فلا بد من اللجوء إلى قوة القانون في تطبيق قرارات التباعد الاجتماعي وعدم ترك الأمور للخيارات الشخصية، لكن مع نوع من الإنسانية في التنفيذ، ودون انتهاج الأساليب القديمة.

ويتعتبر أحمد زايد أن العقد الاجتماعي المبرم بشكل فعلي أو افتراضي بين الحكومات والشعوب يحدد الحقوق الخاصة بكل فئة والواجبات المفروضة عليها، وفي الأزمات الصحية يجب على الطرفين التشارك في مواجهة، وحال كالتى تمر بها المجتمعات اليوم لا

بد أن يلتزم الناس بالتخلي عن حقهم في حرية الانتقال مؤقتا، من أجل المنفعة العامة.

تظل أخطار كورونا المجتمعية معلقة بحبال الوقت، كلما طال حجب الأفراد داخل المنازل، تفاقمت أرقام الإصابات والوفيات التي يتابعونها يوميا، وأصبحت الاعتلالات النفسية تهدد الفرد، وتتشرب عدواها إلى الأسرة الصغيرة، فالكبيرة وربما تصل إلى المجتمع بأكمله.

يسبب طول الفترة الزمنية التي يفشل فيها العلم في اكتشاف حل لمشكلة كورونا في تنامي متلازمة "الكورونوفوبيا" أو شعور الأفراد المستمر بالخوف من الموت أو فقدان عزيز أو التعرض لظروف مادية سيئة، وغالبا ما تصاحبها أعراض مرضية مثل اضطرابات النوم أو

التنفس السريع وخفقان القلب. ويرى زايد أن على كبار السن أن يلعبوا دورا أكبر في نقل الخبرات إلى الفئات العمرية الأقل في تخفيف حالة الهلع وتقليل الإحساس بالملل وقتل الوقت البطيء في المنازل خلال فترات حظر التجوال التي يمكن ترجمتها إلى فرص اجتماعية تعالج اختلال المنظومة القيمة داخل الأسر التي فرقتها مواقع التواصل الاجتماعي.



أحمد زايد:
كلما شعر الناس بالأمان كانت القدرة أكبر على الاحتواء

يملك زايد في جعبته العديد من الأبحاث والمؤلفات التي رصدت الاختلالات الهيكلية في المجتمعات على الصعيد الكلي بخصوص سيكولوجية العلاقات بين الجماعات والحداثة والتبعية والأبنية السياسية، والأسرة العربية في خضم التغيرات العالمية، وركز كثيرا على قضايا التعصب والخطاب الديني في كتاباته التي من أحدثها "صوت الإمام" الذي يعالج تجديد الخطاب الديني، من منظور سوسولوجي.

ويشدد الباحث المصري على أن أفة المجتمعات العربية في انتشار الأوبئة وغياب الثقافة والاعتماد على العالم المتقدم والاكتفاء بالانتظار حتى يحل العالم المتقدم المشكلة، ورغم أن العرب من أكثر الشعوب استخداما للإنترنت لكنهم لا يوظفون الشبكة في مساعدة جهود الحكومات والتوعية بالمرض.

الخطأ والصواب حول كورونا

الخطأ: تم اتخاذ التدابير التي ذكرت في وثيقة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي باسم "وثيقة سرية".

الصواب: القرارات المنتشرة في مواقع التواصل الاجتماعي بعنوان "وثيقة سرية" ليست صحيحة، وكل القرارات والإجراءات يتم إبلاغها للشعب عبر الجهات المسؤولة.

الخطأ: يجب تفسير الفواكه والخضروات لأن فايروس كورونا يلتصق بقشرتها الخارجية، وتجنب تناول الخضروات والفواكه التي لا يمكن تقشيرها.

الصواب: لا توجد أي معلومات مثبتة تفيد بأن تناول الخضروات والفواكه بقشورها يزيد احتمال الإصابة بكوفيد - 19 ويمكن تناولها بقشورها بعد غسلها بالطريقة الصحيحة.

الخطأ: يجب تطهير الملابس أيضا عند العودة إلى المنزل للوقاية من كوفيد - 19.

الصواب: تطهير الملابس لمنع الإصابة بفيروس كورونا ليس تصرفا صحيحا ولا منطقيًا، وغسل الملابس بالشكل المعتاد يكفي.

الخطأ: الوقاية من الإصابة بالفايروس ليست ممكنة.

الصواب: يمكن الوقاية من الفايروس باتباع القواعد الموضحة، واتباع قواعد العزل الاجتماعي لدى الأشخاص المشتبه في إصابتهم أو المصابين فعلا مهم جدا لمنع انتشار المرض ولوقاية المحيطين بالمرضى من العدوى.

الخطأ: يمكن غسل الأقفنة الطبية الجراحية والكمادات العادية وإعادة استخدامها مرة أخرى.

الصواب: مدة استخدام الكمادات الجراحية من 3 إلى 4 ساعات ويجب تغييرها إذا اتسخت أو تبللت، وعند غسلها تصبح عديمة الفائدة.

يؤكد الخبراء على أهمية الحصول على المعلومات، الخاصة بالوقاية من الفايروس، من مصادرها الصحية، والابتعاد عن المعلومات الخاطئة والشائعة عن الموضوع.

الخطأ: وباء كوفيد 19 - يؤثر على المسنّن فقط.

الصواب: يمكن أن يؤثر على كل البالغين واحتمال أن يؤدي إلى مرض شديد يزداد مع التقدم في العمر وخاصة لدى من تتجاوز أعمارهم الـ60 سنة. وتبلغ نسبة الوفيات بسبب الوباء لدى من هم أقل من سن الأربعين 2 في الألف، بينما تبلغ هذه النسبة لدى من هم فوق سن الثمانين 15 في المئة.

الخطأ: فايروس كورونا المستجد تم إنتاجه في المعمل.

الصواب: لم يتم إنتاجه في المختبرات ووصل إلى البشر نتيجة عدة طفرات جينية حدثت له. وظهور فايروسات جديدة تسببت في حدوث أوبئة في منطقة جنوب شرق آسيا هو أمر متوقع لدى الأوساط الطبية، وذلك بسبب الكثافة السكانية العالية والأعداد الكبيرة من الحيوانات المختلفة وكثرة الاتصال المباشر بين البشر والحيوانات.

الخطأ: تم تطوير لقاح من أجل كوفيد - 19 إلا أنه لم يُطرح في الأسواق بعد.

الصواب: حتى الآن لا يوجد أي لقاح يمكن استخدامه ضد وباء كوفيد - 19، وما زالت الأبحاث مستمرة لإنتاجه. كما أنه لم يتم بعد الكشف تماما عن العلاقة المعقدة بين الفايروسات التاجية والجهاز المناعي للإنسان، مما يصعب التنبؤ بمدى فعالية اللقاحات التي سيتم إنتاجها.

الخطأ: وباء كوفيد - 19 يمكن أن يصيب الحيوانات الأليفة.

الصواب: حتى الآن لم تثبت الدراسات انتقال العدوى من الحيوانات الأليفة إلى الإنسان.